الجسد حامِل الثورات وفاعِلها

منى فيّاض
الجامعة اللبنانية
mona.fayadh@gmail.com

الملخص

في هذه الورقة سنعالج موضوع الجسد كوعاء للثورة وفاعل نشط على الأرض انطلاقاً من «حركته» التي تتجسد في الفضاء وتُحدِث التغيير الهائل في وجودِه وسيرورته هو نفسه وفي العالم الواقعي الذي يحتويه. فالثورة فِعل اعتراض غاضب، والحديث عن معارضة يعني وجود حركة أو قوة تتعارض مع قوة أخرى، أي ديناميتان متضادتان ما يفترض وجود مساحة وفضاء وهذا ما يحيلنا بدوره إلى ما هو مادي وواقعي في الممارسة العملية، فالمساحة لها حدود ويمكن السيطرة عليها وهذا ما يسمى بمفاهيم الانتروبولوجية «الحيّز المكاني»، أي المساحة المسكونة أو التي ينتظم فيها الجسد. المعارضة تحيل إلى الجسد. فعندما نفكر بجسد، نفكر أنه «جسد فلان» كتمثّل لمعنى عام تتشكل بحسبه العواطف والانفعالات كظواهر ذاتية. الجسد مع ذلك غير فردي: فهو يفيض دائماً، إنه طفح بحدّ ذاته، نتوء متجسّد في المكان. وهو لهذا بالذات موضع السلطة بامتياز، يُقمع ويُروّض ويُكره ويُرغم؛ يُسجن ويُعتقل ويُعذّب ويُقتل. من هنا كانَ لجوء الأنظمة العربية لاستخدام قوانين الطوارئ لضبط الإنسان العربي، تقيّد وجوده وأمكنة تحرّكه من ناحية والسماح بتفلّت رجال الشرطة من ناحية أخرى لاستباحة حرمات الأجساد دون قيود.

الكلمات المفاتيح: ثورة، جسد، بيوبوليتيك؛ وعاء للثورة؛ حركة نسائية؛ تونس؛ مصر؛ سوريا.

Abstract

The body as a vessel and an actor of revolutions

Mona Fayad

This paper deals with the subject of the body as a vessel for the revolution and an active actor on the field, initiating from its «movement» which is embodied in space and causing great transformation in its being, its own progression and to the reality. Revolution is the act of an anger–full protest. The act of protesting implies the existence of two opposing forces or contrasting dynamics within a material and realistic space which manifests in our practical life. A space has its own boundaries and is controllable; it is what the field of anthropology conceptually defines as a spatial domain, i.e. the habitable space where the body systematically functions. Protesting infers an act of the body. The human body, however, is not individualistic: for it overflows constantly beyond its limits. It is emanation by itself, standing by itself and embodied into space. Therefore, it is the source of authority per excellence, liable to be oppressed, harassed, hated, tortured and even killed. As a result, the Arab regimes resorted to an emergency law in order to control the Arab citizen restricting his presence and movement while allowing the police to have the freedom to violate the sacredness of his without any accountability. By using the concept of Biopolitics or bio power in the study, we will try to understand the situation that preceded the Syrian revolution and what became of it; how people were owning, managing or anything to their pure biological existence (the so–called «bare life»), individually and collectively, taking the burning of Bou Azizi's body and Kalid Said'd «dead without assassin» as founder acts.

Keywords: Revolution; body; biopolitics; vessel of the revolution; Tunisia; Egypt; Syria.

المقدمة

الفعل المؤسس

انتفضت الشعوب العربية أخيرا ونهضت تطالب باسترجاع كرامتها؛ فيما يبدو أنه بزوغ عهد جديد يخرج فيه المواطن العربي من عصور «الرجل الصغير» بحسب تسمية العالم النفسي ولهلم رايش[1]؛ إلى مرحلة جديدة تبشر بأن عهود الاستبداد، الذي نعت بالشرقي كصفة جوهرية وأبدية، هي مجرد مرحلة آيلة إلى السقوط. الرجل الجبان الخائف غير المسؤول الذي يهرب ولا يستطيع النظر إلى نفسه ولا يجرؤ على أن يكون حراً، بل يقبل أن يظل ككلب مضروب؛ هذا الرجل الصغير الذي يجعل من نفسه عبداً وشرطياً على نفسه عرف أخيراً انه وحده المسؤول عن عبوديته. فكان أن انتفض صارخاً حريته، حرية لم يكتسبها إذ لا ضرورة «لاكتساب» الحرية، انها موجودة بشكل عفوي في كل الوظائف الحيوية، ما يقوم به هو» القضاء على جميع الموانع أمام حريته»,

أخيراً صار ممكناً أن يتحقق حلمنا بالحرية، الحرية هي التي تجلب الحرية. جعلتنا الأحداث التي انتقلت من تونس مفجّرة الثورات إلى مصر ومنها إلى ليبيا واليمن والبحرين وإلى سوريا التي تخضع لأكثر الأنظمة الشمولية تشوهاً والذين لا يزال ينتظرهم الكثير من العنف الأعمى.. أعطى كل ذلك الإشارة إلى أن شرارة التغيير انطلقت، وأن قمع هذه الثورات الآن لن يجدي نفعاً إلا في تأخير التغيير وفي جعله دامياً وعنيفاً. يتآمر المستبدون على أوطانهم ويقدمون التنازلات عن كرامة وحقوق شعوبهم باسم ممانعة كاذبة ويصرخون أمام استفاقة هذه الشعوب: إنها «مؤامرة»!! يريدون من الضحية أن تموت تحت أقدامهم مبتسمة! لقد نجح هذا لثلاثين وأربعين عاماً، لكن الآن انتهى عهد العبوديات. التغيير مكلف ومؤلم لكنه آتٍ.

ففي مثل هذه الأنظمة المستبدة لا أهمية لأرواح البشر[2] ولا وجود لشيء

(1) Wilhelm Reich, **Écoute, petit homme!** n.c., Payot, 1999.

(2) انظر التحليل الرائع الذي قدمه الباحث ميشال سورا ودفع حياته ثمناً لذلك في بداية الثمانينات في كتابه:
Michelle Seurat, **L'Etat de barbari**, Sindbad, 1977 et Seuil, Paris, 1989.

اسـمه الرحمة لأنها ضعف، وعلى قول هتلر «القرود يقتلون ضعافهم والبشـر ليسوا أفضـل من القرود»، هناك الكثير مـن الضحايا المدنيين؟ فليكن ما أهمية ذلك؟ إنهم مجـرد أعداد في سـجل الديكتاتور؛ أليس الشـعب هو من اختار هـذه القيادة؟ عليه أن يتحمل مسـؤولية هـذا الخيار وتبعاته، كمـا يقول أحدهم! يأتي الديكتاتور باسـم الشـعب وباسـم تخليصه وتحريره والارتقاء به و.. و.. وعندما يفقد الأمل بالتحكم بهذا الشـعب بشـكل مطلق يفقـد صوابه ولا يحسـن التصرف أو اختيـار الحلول أو السلوك الملائم.. بل يصبح، في تفكيره المشوّه، من واجبه القضاء على هذا الشعب الذي لم يلب أفكاره المختلة! ولم يكن عند حسن متطلباته منه..

اعتـادت الأنظمة العربية خلال سـنوات طويلة على جماهيـر ممتثلة وتابعة ولا تعـرف معنـى المحاسـبة والمبـادرة للإمسـاك بمصيرها وتحمّـل مسـؤولية خياراتها ومستقبلها. جميع الديكتاتوريات دون استثناء أقامت سلطتها على عجز ولا مسؤولية الجماهير النفسـية والاجتماعية. إن العجز الفردي هو الذي يولد الجماهير العاجزة. لكن الجماهير العربية اسـتفاقت، شـرارة جسـد بوعزيزي أشـعلت المنطقة بكاملها، وانتشـرت عـدوى الحرية مثل النـار في الهشـيم. فالعالم العربي كان مجرد هشـيم. الثـورة المصريـة أطلقت إمكانات مجهولة من أصحابها أنفسـهم. الحكام العرب لم يصدقوا بعد انهم فقدوا مفتاح السيطرة على الشعوب.

لكـن الـذل والهوان الـذي عرفته الشـعوب العربية لـم يتوقف علـى الاحتلال الصهيوني بل تحولت الأنظمة الحاكمة نفسها إلى نوع من الاحتلال الوطني في ظل قوانيـن الطوارئ على مدى عقود طويلة إلى أن وصل إلى حدوده القصوى ولم يعد ممكناً السكوت.

إن اسـترداد كرامة الوجود الإنسـاني والتطلع إلى الحرية هو ما يفسـر الثورات العربية الراهنة وقلبها للأوضاع رأساً على عقب عبر حركة رمزية قام بها فرد معترض.

بوعزيزي: أن تشتعل كي تكون

اندلعـت الثـورات العربية انطلاقاً من جسـد قام بحركة مفاجئة. جسـد الشـاب التونسـي بوعزيزي كان مسرحها وموضعها. أضرم النار في نفسه، في جسده. تحوّل هذا الجسـد إلى تجسـيد للرفض المطلق ورمزاً له. اشـتعلت النيران ملتهمة الجسـد

والخـوف معاً، مفسـحة المجال لانبثـاق طاقة تجاوزت في تفجرهـا الرهبة والرعب القدريين. وجدت الثورة لها جسداً. صار للثورة موضع انحفرت فيه هويتها ومآلها. صار لها جسد مقتحم ومشارك بقوة لن تقهر بعد الآن[3].

تنـدرج هـذه الحركة فـي صميم الوجود الجسـدي الذي يمتلـك جوانب عدة، خارجية وداخلية. فالجسـد يُدرك من صاحبـه بتعابير ذاتية وضمن خصوصية تجربته الشـخصية ومعانيها ودلالاتها وليس فقط بوظائفه المعروفة التي تترك للعالم بمعنى الخارج.

وإضرام النار في الجسد ليس من العادات الثقافية العربية، هي عادة معروفة في الهند. تقول الأسطورة الهندية انه عندما أشعلت ساتي (زوجة شيفا) النار في غلافها الجسـماني فهي قامت بذلك كي تلاقي جسد زوجها.. ومن هنا عادة إضرام الزوجة النار في جسدها في الهند بعد ترمّلها كي تلحق بزوجها فتستعيد وجودها إلى جانبه من أجل حياة جديدة.

في ثقافتنا نعرف طائر الفينيق الذي نتشبه به عند كل حرب جديدة نشعلها بيننا، ونقول إن لبنان ينبعث من تحت الرماد مثل فينيقنا!!

والفينيق طائر أسطوري يتميز بقدرته على الولادة المتجددة بعد ان يحرق نفسه بحرارتـه الذاتية. وهو يرمز بهذا إلى حلقتي الموت والانبعاث. وهو إذ يعيش طويلاً لكنـه غيـر قادر على التناسـل؛ لذا عندما يشـعر أن نهايتـه قد حلّت، يهيئ عشـاً من أغصان معطّرة ومن بخور ويترك نفسـه للاحتراق الذاتي.. ومن رماد هذا الاشتعال، ينبعث فينيقاً جديداً يتوصل لضبط النار أكثر فأكثر عند كل اشتعال.

فـي الحالتيـن، لا يحصـل إضرام الجسـد للقضـاء عليـه، بل لكـي يتمكن من الانبعاث مرة أخرى، لكي يتجدد.

مـن هنا وجـه القرابة بين فعل بوعزيزي وبين الأسـطورة: وصلت الأوضاع في تونـس وفي العالم العربي إلى طريق مسـدود، إلى «زنقة» مقفلة؛ فجاء اشـتعال النار في جسد بوعزيزي مؤشراً وإيذاناً بانبعاث أزمنة أخرى لأجساد جديدة.

(3) نشـر مقـال صغيـر من ألف كلمة من هـذا الموضوع في 2011/ 5/ 29 فـي مجلة الدوحة بعنوان «تمرد الجسـد المهان»,

فعلى المستوى الرمزي النار تفني ولكنها تجدّد وتبعث. تعطي فرصة للبناء من جديد. يمكن أن تكون إذن وسيلة لامتلاك النفس من جديد، وبإضرام النار فيها نقضي على ما يقضي عليها.. طائر الفينيق يفني نفسه كي لا يفنى. إنها وسيلة للإشهار وللإعلان عن النفس، للحق في الظهور: أنا هنا وموجود!!

ففي هدم الحدود بين الداخل والخارج، يتحول الجلد إلى المتنفس الوحيد لامتلاك لغة. لغة تقول «اللا», وأن أقول لا يعني أني أؤكد ذاتي واستقلاليتي على ما يشير علينا سبيتز[4].

«خالد سعيد» قتيل من دون قاتل: التمثيل بالجسد – الجثة

عندما دخل خالد سعيد إلى مقهى الإنترنت القريب من منزله، في 6 يونيو 2010[5]، هاجمه شخصان بملابس مدنية (مخبرين سريين)، أمسك به أحدهما وقيّد حركته من الخلف والآخر من الأمام وعندما حاول تخليص نفسه منهما ضرباه حتى الموت. فحالة الطوارئ المفروضة في مصر منذ عام 1981 تعطي الحق لأفراد الأمن التصرف كما يشاؤون مع من يشتبه بهم.

وكان هذا عقاباً له على نشر مقطع فيديو يظهر قيادات لهم وهم يقاسمون تجاراً للمخدرات حصيلة تجارتهم المحظورة، حسبما تقول أسرته. فيما ردت الشرطة والنظام السابق بكامل أجهزته بأن سعيد ضبط وهو يتعاطى المخدرات، وحاول الفرار من الشرطة، وابتلع لفافة من نبات البانغو المخدر، ما أدى إلى اختناقه ووفاته. وأطلقوا عليه صفة «قتيل البانغو»,

وقال الشهود لبعثة تقصي الحقائق إن اثنين من رجال مباحث سيدي جابر أمسكا بالمجني عليه وأخذا يضربانه بشكل هستيري وكأنه انتقام منه لوجود ثأر قديم بينهما وبينه، فقاومهما لأنه لم يعلم من هما، كما أنهما ضرباه بشكل جنوني

(4) René Spitz, **Le non et le oui,** PUF, Paris, 1976.

(5) المعلومات مأخوذة من مصادر صحافية متنوعة تمّ تجميعها في حينها.
ومن: جمال علي زهران، «الاتّجاهات المناطقيّة وعلاقتها بالمركز إبان ثورة 25 يناير في مصر»، في: **الثورة المِصرية**، المركز العربي للأبحاث والدراسات، مجموعة مؤلفين، بيروت، 2012.
ومن: بهجت قرني، **الربيع العربي مِصر الثورة وما بعدها**، مركز دراسات الوحدة العربي، بيروت، 2012، ص ص 135–136.

بالأيـدي والأرجـل بطريقة مبرحة، وأضـاف أن المجني عليه أخذ يصـرخ «من انتما ولمـاذا تفعـلان بي هـذا» ولما حـاول أن يدير وجهـه للخلف قاما برطـم وجهه في رخامة على باب المقهى مما تسـبب في كسـر أسنانه وفكه، وبدأت الدماء تنزف منه بشـدة وهو يحـاول الخلاص بأي طريقة، فسـقط أرضـا وقاما بسـحله على الأرض جرجـراه إلى مدخـل البناية المجاورة. وأمسـكا بشـعره وراحا يضربان رأسـه ببوابة البناية الحديدية ويضرباه في وجهه وبطنه. ركلاه بقوة بالغة فسـقط على السـلم. ثم أمسـكا برقبته وشـعره وضربا رأسـه في السلم، ثم ضربا رأسـه في الباب الحديدي، وهو ما أدي لخلع جزئي للباب، ثم ضربا رأسه في سلم المبنى وفي جدران مدخله.

وتابـع الشـهود «كان هنـاك بالمصادفـة اثنـان مـن الأطبـاء ضمـن المتواجدين واللذين حاولا إنعاش قلبه وقياس نبضه ولكن دون جدوى، ورغم ذلك استمرا في الاعتداء عليه بالضرب ليتأكدا من قتله», وأشـار الشـهود إلـى أن خالد أثناء الضرب كان يصـرخ ويسـتغيث «أنـا بموت»، فرد عليـه أحدهما وقال «أنا مش هاسـيبك غير لمـا تموت», ثم اقتاداه معهما، وبعد ربع سـاعة عادا مجـددا وألقيا به على الأرض. وعقـب ذلك جـاءت مجموعة من المخبريـن ومعهم ثلاثة ضباط وطلبوا الإسـعاف لحمـل الجثـة فرفض هؤلاء في البداية حيث أكد الطبيب وفاة خالد، إلا أنهم هددوا سـائق السيارة على حمله وأجبروا الموظف المختص على كتابة تقرير أن خالد كان حيا. ثم غسلوه من الدم ووضعوه في كمية كبيرة من الثلج، حيث ظهرت على الجثة آثار تكسـير الأسـنان والجمجمة وتشوهات بالوجه وتسـلخ باليدين والقدمين نتيجة السحل.

العقـاب هنا تخطّـى كل الحدود. قتل الضحية وحده لم يكف. السـرعة بالقتل تحفظ حرمة الجسد وحرمة الشخص. كان يتوجب إدامة «فعل القتل» عبر أطالته من أجل التمتع بالتمثيل بالجسـد وبسـحقه وتعذيبه وتحويله إلى أشـلاء من أجل هتك حرمته عبر الانتقام الأعمى.

لم يتم الاكتفاء بذلك المشـهد الدامي. تبعه قيام حملة إعلامية لقبته بـ «شـهيد البانجو» للنيل من سمعته وإظهاره على إنه من محترفي الإجرام. وتعارض ذلك مع التغطية المحايدة للصحف المستقلة والقنوات الفضائية الخاصة. جعل هذا التناقض أحـد الكتـاب يقول «كلما قـرأت تفاصيل هذا الذي وقع في سـيدي جابر، شـعرت

بأن هناك شـابّين يحمل كلاهما اسـم خالد محمد سعيد، تواجدا في الإسكندرية في تلك الساعة من يوم 6 يونيو عام 2010 وتُوفّيا إلى رحمة الله في نفس اللحظة. هناك «خالدهم» خالد تقارير الحكومة وكتّاب الصحف القومية، و«خالدنا» نحن المصريين الذين يملؤون الشوارع ويتمنون أن يبتعدوا عن الحكومة وتبتعد الحكومة عنهم»,

أثبت تقرير الطب الشـرعي الـذي طلبته النيابة العامة بعد الوفاة مباشـرة وجود كسـر في الفـك ونزول فـي عظام الوجـه «تحطيـم للجمجمة» إضافـة إلي رضوض وكدمـات فـي الوجه وإصابـات متعـددة بالوجه وبعض أجـزاء الجسـم، إضافة إلي وجود سقوط الأسنان نتيجة لتلقي ضربات شديدة» لم يحدد نوع الأداة» كما أكد أن الإصابات بجثة الضحية هي إصابات حيوية، أي حدثت قبل الوفاة وليس بعدها. مع ذلك لم يثبت التقرير الأولي للطب الشـرعي، بحسـب محامـي مركز النديم لحقوق الإنسـان جميع الإصابات ولـم يربط بين الإصابات وبين الوفـاة. وظل القتلة طلقاء إلى ما بعد قيام ثورة 25 يناير بمدة.

كان هناك جسد قتيل دون اعتراف بفعل القتل أو بوجود قاتل.

ونتيجة لإصرار النظام السـابق على تبرئة أفراد الشـرطة من جريمة موت سعيد نتيجـة التعذيـب، انطلقت المئات مـن الوقفـات الاحتجاجية والتظاهرات في شـتى أنحـاء البلاد لمدة سـتة أشـهر، إلى أن رضـخ النظام السـابق إلى الضغوط الشـعبية والخارجية الآتية من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وقدم أفراد الشرطة إلى المحاكمة، إلا أن التظاهرات لم تتوقف، بسبب التباطؤ في المحاكمة، وتعرّض أسرة الضحية لمضايقات، لإجبارها على التنازل عن الدعوى القضائية.

وفي 10 يونيو أسـس وائل غنيم صفحة «كلنا خالد سـعيد» على الفايسـبوك[6]، وكان هذا تمهيداً وإيذاناً باندلاع ثورة 25 يناير التي لا تزال مفاعيلها مستمرة.

بروز الجسد المعارض

الحديـث عـن معارضـة يعني وجـود حركة ما ضديـة أو قوة تتعـارض مع قوة أخرى، أي ديناميتان متقابلتان ما يفترض وجود مساحة وفضاء وهذا ما يحيلنا بدوره

(6) نرمين سيد، «الإعلام الجديد وفرص التحوّل الديموقراطي» في: **الثورة المِصرية**، مرجع سابق.

إلى ما هو مادي وواقعي في الممارسة العملية. فالمساحة لها حدود ويمكن السيطرة عليها وهذا ما يسمى بمفاهيم الانتروبولوجيا الحيّز المكاني، أي المساحة المسكونة أو التي ينتظم فيها الجسد. المعارضة تحيل إذناً إلى الجسد، لضرورة وجود قوة دافعة مضادة لقوة أخرى ما أو لسلطة.

الجسد أحد مفاتيح الخروج على الفردانية؛ بالرغم من أنه غالباً ما يتم الربط بين الجسد والفرد. فالجسد يعيّن الفرد ويجعله فريداً. وعندما نفكر بجسد، نفكر أنه «جسد فلان» كتمثل لمعنى عام تتشكل بحسبه العواطف والانفعالات كظواهر ذاتية، غير قابلة للالتقاط تنبثق عن حميمية القلب التي يتعذر علينا سبرها. الجسد مع ذلك غير فردي: فهو يفيض دائماً، إنه طفح بحد ذاته، نتوء متجسد في المكان. وهو لهذا بالذات موضع السلطة بامتياز، يُقمع ويُروّض ويُكره ويُرغم؛ يسجن ويعتقل ويعذّب ويقتل.

حركة بوعزيزي بدأت كحركة لجسد مفرد له حكايته الخاصة والفردية، له تاريخه الشخصي؛ لكنها سرعان ما تخطت نفسها وتاريخها الخاص لكي تصبح رمزاً لحكاية جسد الثورة نفسها. تحولت حركة مدفوعة من تاريخنا السحيق الممتد، المظلم والمحنط والمتجمد، مطيحة به ومحركة له في نفس الوقت.

تحدث الثورة في الواقع وفي سياق العالم المادي وهي تقود إلى التغيير الملموس والمحسوس له فتحتل الأمكنة والساحات والميادين لتطالها جميعها. وفي كل مرة يتكثف فيها الصراع ويصبح ممكناً انتزاع نصر مهما كان صغيراً فهو يحصل فيزيائياً: يلزمه أجساد للدفاع عن حاجز أو سياج أو ميدان. يلزمه القوة السياسية المرتكزة دائماً على قوة مادية وجسدية. والقمع السياسي أيضاً يحتاج إلى أجساد تتلقاه وتخضع له.

الجسد مبعث الثورة وسببها ومجسدها، فالثورة تحتاج إلى الحنجرة لتطلق الكلام والهتاف وإلى الذراع لترتفع عالياً في الهواء وإلى القبضات لتلوح والأصابع لترسم الشارات وإلى نظرات الغضب لكي تنزل كالصاعقة على الخصم وإلى الساقين والذارعين لكي تحمل الثورة وتنقلها وتحميها وتدافع عنها.. تحتاج الجسد منبع الحركة.

صادرت الشرطية بضاعة بوعزيزي من الخضار، استعادها؛ عادت فصادرتها؛

اعترض، صفعته الشرطية، رفض رئيس بلدية بوخضرة في ولاية تبسة استقباله وكان قد رفض تشغيله. هدّد بحرق نفسه. «أحرق نفسك» قيل له.

فأحرقها نفسه تلك.

جسد بوعزيزي فتح الهوة التي ستبتلع الظلم والقمع والذل وامتهان الكرامة. حركة بسيطة، جسد يحترق ويتحوّل العالم، ينقلب رأساً على عقب، تقلّبه الأجساد الغاضبة والثائرة. صار للتغيير جسد وصوت، خرجت الثورة من جسد مفرد غاضب ويائس ورافض فاجتاحت الساحات وانفلشت على امتداد العالم العربي لتجد لها مسرحا وملعبا.

الحياة العارية اكتست جسداً رافضاً مقاوماً.

الجسد المحترق تسبب في تغيير مستقبل الأوطان العربية؛ تحولت ناره كرة ثلج تدحرجت من بوخضرة إلى تونس العاصمة متسببة بثورة الياسمين التي جرفت أجسادها الثائرة النظام التونسي متخطية الحدود حيث حطت في ميدان التحرير لتندلق ثورة اللوتس، بحسب تسمية سعد الدين إبراهيم، التي كانت تتحضر وتنتظر اللحظة المناسبة منذ أن سُحل جسد خالد سعيد. وهي لا تزال تتدحرج. تتعثّر في سوريا حيث تأبدت حالة الاستثناء، وحيث شعار النظام: نقتلكم أو نحكمكم... لكنها ستستمر.

تمرّد الجسد المُهان وثورتُه

في الحقيقة لطالما تساءلت، كيف للمصريين، أصحاب إحدى أكثر الحضارات عراقة وإدهاشاً القبول بعيش الذل والهوان والفساد؟ حتى الدماثة واللطف والتهذيب والتسامح، الصفات التي يتمتع بها المصريون، تحوّلت مرادفاً للاستكانة والقهر والسلبية، ليس فقط بسبب رؤيتنا لهم كذلك، بل للسبب الجوهري أنهم صاروا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مغلوبين على أمرهم ومهانين في كرامتهم ولا أمل لهم في الخروج من تلك الدائرة الجهنمية التي غرقوا فيها. وانسحب هذا الشعور بالمهانة على العرب جميعاً بسبب من مكانة مصر وأهميتها وبسبب تشابه الأنظمة العربية.

عرفنا في لبنان هذا الشعور بانتقاص الكرامة جيداً لذا قامت انتفاضة 14 آذار

2005. لكـن بعـد نجاح ثـورة تونس، انكسـر حاجز الخـوف عند المواطـن العربي إلـى الأبـد. واندهش العالم. حقق انبعاث ثورة شـباب مصر أنجـح جراحة تجميلية يمكن أن يخضع لها جسد. فجأة انقلبت صورة الجسد العربي، اختفت صورة جسد الكلب المضروب، فانتصب الجسـد الجديد شـامخاً معتداً يملأ الشاشات وتحولت اللفحـة التـي اسـتخدمها الثوار ضد قنابل الغـاز من رمز للحجاب الـذي يختلط في نظـر الغربيين بالإرهـاب إلى شـعار لمقاومة العبودية ولاسـتعادة الحريـة والكرامة. وغطّت صور الأجساد الرشيقة الفتية الثائرة الشاشات كإعلان عن أول ثورة مسالمة ومبدعـة للفـن في التاريـخ. أول ثورة متحضـرة، يحرص القائمون بهـا على تنظيف ميدان ثورتهم.

واكتسـت الأجساد بالألوان واكتسبت حرية حركة وطاقة تعبيرية هائلة وحملت الأيدي الشعارات المعبّرة عن الأفكار السياسية وعن النكتة المهضومة عميقة المعنى وتحولـت ألوان العلم المصري موضة وبدأت الكاميرا تبحث عن أجسـاد الثورة في تنوعهـا فأظهرت صـورة المنقبة الوحيـدة حينها وخاف البعض: إنهم الإسـلاميون!! لكـن عاكسـتها صـورة الفتـاة ذات الشـعر الأحمر الأقرب إلـى الهيبي لكـي تطمئن الخائفين واسـتعرضت فتاة حقيبة الفيتون إلى جانب المسلمات العاديات والمودرن والمحافظات والشباب بالأحذية الرياضية والشعارات والنكات والمجلات والرسوم ووو.. عالم جديد وأجساد شابة حرة.

في 25 يناير انبثق جسد الكرامة والعنفوان. في اتصال مع ابني الشاب الذي كان يدرس في كندا؛ وصف لي أن المصري تغيرت هيئته ومشيته وأنه صار معتداً بنفسه وفخـوراً بانتمائـه؛ وليس هـذا فقط بل صار الكنديـون ينظرون إليـه بطريقة مختلفة، بإعجاب.

وبتغيّر جسد الشباب المصري، تغيّر سلوكهم. وصارت هيئتهم ومظهرهم فجأة مصدر إلهام للعالم، ونموذجا للشـباب العصري وصـار على الآخرين تقليده وحتى الغربيين بينهم الذين طالما قلدناهم.

الثـورات تجمّـل الأجسـاد. الثـورات تشـفي الـروح وتعالجهـا، كتـب أحـد المتظاهريـن فـي ميـدان التحرير: «انتصـار الثورة هو حل لجميع المشـاكل النفسـية للشـعب المصري»، وكتـب آخر أيضـاً: «ثوروا تصحـوا», وصرّحت صبية «حاسـين

مصر بقت بتاعتنا», استعاد الجسد قلبه الذي كان خارجه.

الاحتجاج بتعرية الجسد

في ظل هذه الأوضاع برزت حركة اعتراض نسائية مستخدمة تعرية الجسد بدأت في مصر وانتقلت إلى تونس وإلى المغرب مؤخراً. فعلى غرار حركات الرفض الغربية التي تعبر عن معارضتها أو دفاعها عن حقوق المرأة أو غيرها عبر تعرية الجسد وكشفه في تظاهرة ما، وأبرزها حركة فيمين الأوكرانية التي تعتمد أسلوب تعرية الصدر للاعتراض، والتي أسست في العام 2008 ومركزها في كييف[7]، قامت علياء المهدي المصرية بنشر صور عارية لها تعبيراً عن رفضها لحكم الإخوان في مصر على الفايسبوك. وتشير موسوعة ويكيبيديا أنها نشرت صورتها لأول مرة في مدونة أسمتها «مذكرات ثائرة» تحت عنوان «فن عاري» في 23 اكتوبر 2011 وتظهر فيها كذلك صورة عارية لمن يعتقد أنه صديقها وأخرى لمجهولين بالإضافة إلى صور عارية من رسم فنانين مصريين؛ غير أن الصورة لم تشهد اهتماما واسعا حتى ظهور فيديو على اليوتيوب في 15 نوفمبر تظهر فيه صور مدونتها مع شعار لحركة 6 أبريل، غير أن كلا من الحركة وعلياء نفيا انتمائها لها.

وفي ديسمبر 2012 تعرّت علياء المهدي وناشطات ينتمين إلى منظمة «فيمين»، أمام السفارة المصرية في السويد رفضاً للدستور المصري الجديد وقد كتبت علياء على جسدها العاري عبارة «الشريعة ليست دستوراً» ورفعت علم مصر. وأثارت صورها جدلاً واسعاً بين من أيدها واعتبرها ثورة على الواقع وبين من رأوا في ذلك خروجاً على الواقع. ولقد تمت متابعة أخبارها في العالم العربي بشكل محموم فبلغ زوار صفحتها 882 ألف زائر في يومين بحسب الويكيبيديا[8].

هذا وتم تقديم العديد من البلاغات للنيابة العامة في مصر للتحقيق في اتهام علياء وصديقها المدون كريم عامر بخدش حياء المجتمع المصري ونشر الرذيلة فيه بالإضافة لازدراء الأديان، الأمر الذي يُخالف – وفقًا لمُقدمي الاتهامات– نصوص

(7) لمراجعة وتعريف سريعين لحركة «فمينين» انظر: «**نهود متمردة**»، الكفاح العربي، (2014) 4148 آذار، ص ص 48–51.

(8) انظر **علياء مهدي** على الغوغل تجد مدونتها وأخبارها.

مواد قانون العقوبات المصري، وطالب البعض بتطبيق الحد الشرعي عليهما ليكونا عبرة لغيرهما. وأعربت بعض الإسرائيليات عن تضامنهن مع علياء المهدي[9].

كما أن علياء تعرضت خلال مشاركتها لاعتصام الثوار في ميدان التحرير ليلة الخميس في 24 نوفمبر 2011، للاعتداء عليها بالضرب وطردها من الميدان، وأظهر تسجيل فيديو تمّ تداوله عبر موقع الفايسبوك عددًا من الموجودين في الميدان وهم يدفعون بها خارج المكان فيما حاول آخرون التهدئة ومنع استخدام القوة المفرطة ضدها.

وتشير بعض المواقع الإلكترونية إلى حصول علياء المهدي على منحة دراسية وجواز سفر سويدي في مطلع العام 2012[10]. كما راجت مؤخراً أنباء عن مقتلها لكنها أخبار غير مؤكدة.

وعلى خطى علياء المهدي قامت وفي شتاء 2013 التونسية أمينة تايلر بنشر صورها عارية على صفحتها على الفايسبوك مع شعار كتبته على جسدها: جسدي ملكي وليس شرف أحد. ودافعت عن تحركها قائلة إنها رأت أن حركة فيمين التحرك الراديكالي الوحيد في العالم للدفاع عن المرأة. واعتبرت أن التعري هو افضل طريقة لإيصال رسائل تعبر عن مدى تعاسة وضعية المرأة في العالم العربي.

هذا وبدأت مجموعة من الناشطات من حركة فيمن حملة واسعة لتعرية أجسادهن تضامنا مع أمينة التونسية والتي اختفت في ظروف غامضة بعد قليل من تلقيها تهديدات من جانب بعض الإسلاميين في تونس[11].

هذا كله يظل ضمن دوائر السواء أو المقبول. عكس ما حصل ويحصل في سوريا.

البيوبوليتيك أو الحياة العارية: خصوصية الوضع السوري

الثورة المصرية ومآلها مختلفة بشدة عما حصل ويحصل في سوريا. يبدو المسار السوري مختلف نوعياً عن مسارات الثورات العربية في البلدان الأخرى.

(9) 23.11.2011 | jspace.com. **عن روسيا اليوم**: http: / /arabic.rt.com /news /572389/

(10) عزيز خليل، العراق نت في20/ 2/ 21 انظر العراق.

(11) انظر صور «**حملة نسائية تضامنا مع المتعرية التونسية**»، في الحياة نيوز 2013/ 3/ 23.

فمن سوء حظهم أن نظام الأسد استفاد من دروس تلك الثورات. وإذا كان تأثير الثورة في مصر لعب دوراً في تحرير وتجميل «الجسد الثائر»؛ نجد أن الوضع في سوريا طغا عليه الجانب المظلم كامتداد لما يسود في تلك البلاد منذ أربعين عاماً من استغلال وإهانة وظلم وقمع وسجن وتمثيل وقتل وتعذيب.

وأكثر ما يبرز الفرق بين الوضعين كتاب «غرافيتي الثورة المصرية»[12]، وهو ينقل مختلف أنواع الكتابات والصور والرسوم والجداريات وكل أشكال التعبير التي ملأت الحيطان إبان ثورة 25 يناير في القاهرة. هذه الشعارات والكتابات التي خُطّت على الجدران جسّدتها أيدي وأصابع فنانة قامت برسم الوجوه، وجوه كثيرة، وجوه متعددة ومتنوعة، مختلفة ومتشابهة؛ وأجساد، أجساد متواترة، جامدة أو متحركة، واقفة أو مستلقية أو راقصة وفي وضعياتها الرافضة والمناضلة أو المتأهبة مع وجوه من استشهدوا التي تقطع مشاهد الأجساد الحية لتذكرنا ان للحرية والكرامة ثمن.. يطول الجسد والشخص كي تبقى الأوطان ولكنه يعزز النفس ويطهرها.

أما في سوريا فلقد بلغت الممارسات العنفية التي طاولت البشر والحجر مبلغاً غير مسبوق في العالم إن لجهة أنواع التنكيل والتعذيب أو لجهة الحجم أو الامتداد الزمني. خاصة وان ذلك يجري تحت أنظار العالم كافة وعبر النقل المباشر؛ الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل.

كيف يمكن أن تحصل هذه الممارسات؟ وما هي خلفيتها؟

قوانين الطوارئ وحالة الاستثناء

تضبط قوانين الطوارئ في العالم العربي الإنسان العربي عبر تحويله إلى جسد مضبوط مقيّد الوجود عبر تحديد مواقيته وأمكنة وكيفية تحركه وتعطي الجهاز الحاكم وسلطته البوليسية القدرة على القيام بأعمال غير خاضعة للقانون العام حتى في الأحوال العادية وهو ما سمح لرجلي البوليس السريين بقتل خالد سعيد بدم بارد دون خوف من مساءلة أو من عقاب.

(12) مليحة مسلماني، **جرافيتي الثورة المصرية**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013. وهو عبارة عن تجميع وتبويب ملصقات وصور وشعارات انتشرت خلال وبعد الثورة المصرية.

مـع ذلك يظـل هناك حدود واضحة في هـذه الحالة يضبطها مبدئيـاً القانون ومن هنا لاحظنا إمكانية تحرك جمعيات المجتمع المدني وحقوق الإنسان عندما قتل خالد سـعيد. بينمـا توجد حالة ثانيـة، كما في ليبيا القذافي أو كما في سـوريا الأسـد، يطلق عليهـا حالـة الاسـتثناء الممتدة من دون حـدود ولا ضوابط. حيث الآلاف من سـجناء الرأي المعرّضين للتعذيب والتنكيل ولمختلف الانتهاكات الممكن تصوّرها دون أن تتم مجرد الإشـارة إلى وجودهم. فحين تعلّق القوانين وتسـتباح حقوق المواطنين؛ يصبح الدستور والمؤسسات غطاء لسوء استخدام السلطة بدل أن يكون لحماية المجتمع.

مـن هنـا يمكـن التمييز بيـن حالتين: حالـة الطوارئ التـي ينص عليهـا القانون والدسـتور وحالة الاسـتثناء[13] ما قبل القانونية والتي يسـتفرد فيها الحاكم بالمجتمع ككل كمـا هـي حالتي ليبيا وسـوريا. يصبـح توصيف الوضع المعـاش في مثل هذه الـدول وفـي ظل بعـض قوانين الطـوارئ هو العيش فـي حالة ما قبـل قانونية، حالة اسـتباحة إرادة الحاكم التامة للمجتمع دون أي حرمة. إنها الخضوع لتسـلط الحاكم الفرد المطلق حيث لا ضابط ولا قانون يخضع له سوى إرادته. وما أسهل ما تكون هذه الإرادة عبثية.

يصاغ الدستور في مثل هذه الحالات لكي يحقق الغلبة المطلقة لحالة الاستثناء ولسـلطات الحاكـم علـى الدسـتور. وبدل أن يشـكل الدسـتور المنطلق والأسـاس للحكـم، يجري مسـخه إلى جملـة قواعد يسـتخدمها الحاكم كأداة سـيطرة وتكتيك سلطة لفرض الانصياع على الجموع[14]. يعامل الأفراد في ظل هذه الحالة على أنهم كائنات مستباحة بلا كيان ولا حرمة قانونية. مجرد أجساد بيولوجية.

هنا تبرز أهمية مفهوم البيوبوليتيك الذي أوجده فوكو[15] أو من قاموا بقراءته وأهمية عمل أغامبن على هذه المسألة. تعبير البيوبوليتيك موجود منذ بدايات القرن العشرين، لكنـه اتخذ مع فوكو[16] معناه المفهومي الدقيـق: فاعتنى بتحديد مجاله التطبيقي خاصة

(13) **حالـة الاسـتثناء والمقاومة فـي الوطن العربي**، تحريـر مجموعة من الباحثين، مركز دراسـات الوحـدة العربية، بيروت 2010.

(14) Caroline Donati, **L'exception Syrienne,** la découverte, Paris, 2009.

(15) Michel Foucault, «La naissance de la médecine sociale», in **Dits et écrits,** t. 2, Paris, Gallimard, 2001, p. 207–228.

(16) *Methodos,* Issues 4, 2004. Katia Genel, «Le biopouvoir chez Foucault et Agamben», in

في كتابه «إرادة المعرفة», وهكذا تحققت هوية البيوبوليتيك نفسها، البيوسلطة صارت امتلاكاً أو إدارة أو الإمساك بكل ما له علاقة بالوجود البيولوجي للفرد وللسكان، منفردين وجماعات. وهذا ما تحقق بشكل تام في المجتمع الرقابي – الانضباطي في القرن التاسع عشر ولذا تركز عمل فوكو حول الجنون والسجن والصحة والسلطة الرعوية وتطور الخطاب بصلته بالممارسات الاجتماعية. وبما أن ممارسة الحجر هو القاعدة، لذا قام فوكو بدراسة: المدرسة، المصنع، المستشفى والثكنة[17].

يقدم أغامبن جينولوجيا لمفهوم الحياة ولاستخداماتها السياسية من حيث توقّف فوكو، وسوف يستخرج مفهوم الحياة العارية، الحياة البيولوجية التي سوف يقوم بتحليلها كنتاج لبنية ميتافيزيقية وسياسية محددة.

تتأسس المهمة النظرية لأغامبن على رهان: انه يمكن للنظرية السياسية أن تلتقط شيئا من التجارب التوتاليتارية للقرن العشرين بواسطة مفهوم الحياة وفي سؤال تعريفها، وخاصة في الإنتاج السياسي للحياة العارية. وهكذا استخرج الكاتب وجود «بنية للاستثناء»: الحياة العارية[18].

توصل أغامبن إلى اكتشاف بنية الاستثناء هذه عن طريق مساءلة التجارب البيوسياسية للرايخ الثالث خاصة في معتقلات التعذيب: كيف توصلت الحياة لأن تصبح موضوعاً للسياسة؟ كانت بقايا أوشفيتز المتاحة هي الطريق المفضي الذي سمح له بمقاربة هذا الموضوع الثقيل. ما هي العلاقة بين السياسة والحياة إذا كان بالإمكان نزع كل قيمة عنها بواسطة قرارات سياسية؟ تنزع القيمة عن الحياة بالتحديد بسبب القيمة التي تمتلكها أو أسبغت عليها بالدرجة الأولى.

طبق الحكام في العالم العربي القواعد الذهبية للإخضاع على الجسد البيوبوليتيكي العربي، عبر اعتماد أقصى درجات القمع والتعذيب والسجن والنفي. وفي نقد الفلاسفة الغربيين لمجتمعاتهم نجدهم يركزون على امتداد السيطرة عبر الرأسمالية، ليس فقط

(17) KLESIS– Pietro Montani, «Esthétique et an–esthétique du biopouvoir», in ***La biopolitique,*** En collaboration avec L'Université de SALERNE. No. 8, KAHZIZ, Revue Philosophique, 2008.

(18) Giorgio Agamben, **Homo sacer I**. **Le pouvoir souverain et la vie nue**, traduit par Marilène Raiola, Paris, Le Seuil, 1997.

على الجسد بل على الذات وعلى الذهن، جاعلة الإنسان من دون قيمة[19].

والأنظمة العربية المتخلفة على جميع الصعد خاصة على الصعيد التنموي والاقتصادي، كانت سريعة في استخدام أكثر آليات القمع تطوراً، وأكثر ما تمثل ذلك في آليات الإذلال والتحقير التي استخدمتها الأنظمة العربية تجاه شعوبها طوال سنوات وأكثر ما «أبدع» في ذلك نظام البعث في سوريا والعراق والنظام الليبي غير قابل التوصيف. وهذا ما تمت الإشارة إليه منذ اليوم الأول للثورات عبر شعار «الشعب يريد» و«الشعب يريد الحرية والكرامة», وفي سوريا: «الشعب السوري ما بينذّل، الشعب السوري ما بينهان»,

قامت ليزا وايدن في كتابها «السيطرة الغامضة»[20] بإظهار آليات السيطرة التي استخدمها نظام الأسد من خلال العروض والخطاب البلاغي والشعارات الرسمية وغيرها من الأساليب.

هذا الشعور العميق بالخضوع للسيطرة عبر الإذلال والإهانة الجسديين والنفسيين يكفي وحده لتفسير الثورات التي قامت على رفض ذل ابتلاع الإهانات في مجمل جوانب الحياة اليومية من دون أي قدرة على الرد، الإهانة من قبل شبيحة النظام الشمولي، الإهانة عبر تلقي وجبات الكذب والبروباغندا اليومية على التلفزيون وفي الصحف والتظاهر بتصديقها، إظهار الاحترام لمن نحتقر بل الاضطرار إلى مديحه أيضاً، الإحساس المطلق بالعجز[21]... لقد أهينت الشعوب العربية طويلًا.

حيوات عارية: بقاء النظام مقابل بقاء البلد، نقتلكم أو نحكمكم

إن ما آلت إليه الثورة السورية التي انطلقت سلمية لشهور ومع ذلك جوبهت منذ بالبداية بالعنف. لكن خطة المواجهة كانت في منتهى الخبث، حيث تدرج استخدام العنف عبر ضربات تجريبية متصاعدة كتمارين بطيئة لرصد رد الفعل الدولي الذي ترك الحبل للنظام على غاربه ولم يبد ردود الفعل المتناسبة مع الأفعال ما أتاح له

(19) Philippe Nantes, **Pourquoi étudier la notion de biopolitique**, le 22 juillet 2010 http://nantes.indymedia.org/article/21641

(20) ليزا وايدن، **السيطرة الغامضة**، بيروت، دار رياض الريس، 2001.

(21) كارستن ويلاند، **سورية، الاقتراع أم الرصاص؟**، بيروت، دار الريس، 2011.

التوصل إلى استخدام أسلحة دمار شامل ضد سكان مدنيين عزّل. وهذا هو البرهان على أن البشر في مثل هذه الأنظمة التي تعيش على حالة الاستثناء ليسوا سوى أجساد وحيوات عارية تقتل وتسحق وتدمر مثل المتاع فاقد القيمة. ينقل عن أن لسان حال هذا النظام هي: استلمنا سوريا بثمانية ملايين شخص وسنعيدها كما كانت.

في هذا الإطار يكتسب مفهوم الحياة العارية لنظرية البيوبوليتيك كل معناه.

نقلت الصحف أن شبيحة الأسد ملأوا جدران أطراف غوطة دمشق المحاصرة بعبارات: «الجوع أو الركوع»[22]. ومع استمرار محاصرة مخيم اليرموك للفلسطينيين والغوطة صار الشعار «الاستسلام أو الموت جوعاً», ما أرغم المراجع الدينية على الإفتاء بتناول طعام القطط والكلاب والحمير[23]. هذا ومنذ بداية الثورة كان الشعار «الأسد أو نحرق البلد»[24] الذي كتبه جنود النظام وأتباعه منذ الأسابيع الأولى للثورة، وترجم على أرض الواقع على مدى عامين ونصف من القتل المنظم والتدمير والتهجير.

إلا أن ممارسة القتل تجويعاً الأخيرة تفوق كل التوقعات وتترجم حرفياً سياسة الأنظمة المشابهة التي تعتبر أن أجساد وحياة البشر هي ممتلكات خاصة يمكن التصرف بها، إنها حيوات عارية وخاضعة لإمرة الحاكم – الإله[25].

التنكيل بالجسد العاري

أصبح الجسد موضوع تنكيل وتشويه واغتصاب: «أقف مشدوها غير قادر علي انتقاء تعبيرات مناسبة أصف بها حجم الكراهية المتفشية في أوصال الجسد المصري والمعبّرة عن نفسها بقوة على مدى أسبوع كامل بفيديوهات قتل وحشي وسحل وتمزيق أجساد وانتهاك حرمات», بهذه الكلمات طالعتنا مقالة الكاتب نادر

(22) انظر ميشال كيلو، «**القتل تجويعاً**»، **الحياة**، 16 أكتوبر، 2013. وبالنسبة للبلدان الأخرى أيضاً: «اغتصاب نساء ليبيا» فيلوموند فرنسا 15 ت2/ نوفمبر 2013.

(23) انظرمحمود سرحان، «**اليرموك يفتي بأكل القطط... وآلاف المدنيين قد يصبحون ضحايا الصمت**»، الحياة اللندنية، 20 أكتوبر 2013.

(24) محمد منصور، «**الأسد أو نحرق البلد**»: **الجوع أو الركوع**»! ورينت نت، عن هدهد، 2013/ 10/ 6.

(25) ولقد شاهدنا عدداً من أفلام الفيديو في بداية الثورة تظهر جنوداً نظاميين يطلبون من رجال مدنيين أخضعوا للتعذيب راكعين ويطلب منهم تكرار جمل تفيد بأن إلههم هو بشار.

بكار في الأهرام[26].

إذا كان هـذا الوصـف يطـال الوضـع المصـري حيـث الضحايا مهمـا ارتفعت أرقامها تظل بالمئات أو الآلاف التي لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

فمـاذا نقـول عما يحصـل في سـوريا إذن؟ حيـث يتـم انتهاك حرمة الأجسـاد ويدجـن العنـف والموت ويتحـول منظر الجثث المكدسـة والمنكّل بهـا إلى روتين يـكاد يصبح مضجراً لشـدة تكراره يومياً وعلى امتداد سـاعات النهـارات المتتالية. تنقل لنا الصحافية بيسـان الشيخ كيف أعادها إعدام بائع القهوة الحلبي محمد قطاع إلى ما سمعته من زميل لها صحافي إيراني عن طفولته في طهران غداة الثورة «حين كانـت الإعدامـات تتم في السـاحات العامة ووسـط الشـوارع ولا تسـتثني الأطفال والنسـاء. كانـت الجثـث تُعلّق على الأشـجار أو أعمـدة الكهرباء وتتـرك ليومين أو ثلاثـة، فيعبـر المارة مـن تحتها إلى بيوتهـم وأعمالهم كأنها جزء من المشـهد العام. ويـروي ابن طهران ذاك كيف كان هو وأطفال حيّـه يهبطون صباحاً من منازلهم قبل وصول حافلة المدرسـة ليلهـوا بالجثث ويقذفوها بالأقـلام والحقائب، ثم يتحرّقون شـوقاً لدى عودتهم بعد الظهر لمعرفة إن أزيلت أم لا، فيتسـنى لهم مزيداً من ذلك اللعب الشيطاني».[27]

أرشيف الدم

إن شـيوع وسـائط الاتصـال الحديثـة والهواتـف الذكيـة جعل ممكناً تسـجيل الفظاعـات الممارسـة وتحويلها إلى بث مباشـر وغـب الطلب للحم الحـيّ المدمّى والمقطّع والمشوّه.

فمـا يحصـل فـي الثورة السـورية مـن عـرض قباحـات العنف الوحشـي وغير الإنسـاني بأكمـل صـورة توصّلت إليهـا ممارسـته على الكـرة الأرضيـة. إنه عرض للقتـل اليومـي الوقح المفتقد لأي احتشـام. قديماً كنا نتخيل ممارسـات العنف بعد أن نسـمع عنها أو نشـاهد بعض لقطاتها أو صورها. اليوم صارت هذه الممارسـات تعرض أمامنا وتدخل منازلنا من على الشاشـات حيث يتم التفنن في تخيّل مشـاهد

(26) نادر بكار، «ثقافة الكراهية»، **الأهرام**، 2013/ 7/ 8.

(27) بيسان الشيخ، «تدجين العنف.. إعدام طفل»، **الحياة** في 2013/ 6/ 15.

وتنفيذها كي تكون أكبر تأثيراً أو تخويفاً وترهيباً. كما جعل هذا النقل المباشر منا، المشاهدين، ومن الجلاد ومن الضحية شركاء في الجريمة. وهذه الشراكة تمعن في تفكيك النسيج الاجتماعي وفي تفتت الروابط الإنسانية وتفلت الغرائز وطغيانها ووحشيتها.

ما يحصل جعل الصحافية لميس فرحات تعنون مقالة لها «السوريون يتبادلون لقطات جرائم قتل غير إنسانية وكأنها بطاقات معايدة»[28].

يكتب عبد الباري عطوان واصفاً بعض هذا العنف على مسرح الجسد الإنساني: «تفاصيل المشهد السوري التي تنقلها الوكالات الأجنبية إلى العالم بأسره تقدمنا، كعرب ومسلمين، جزارين قساة القلوب، لا نعرف الرحمة، ولا نمتّ إلى الإنسانية بصلة، وكل همنا هو الذبح وسفك الدماء... جنود سوريون يطعنون رجلا ببطء في ظهره عشرات الطعنات حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويقدم زعيم معارض على قتل جندي، وتقطيع جثته، وانتزاع قلبه ويقضمه أمام الكاميرا، ويقدم فتى لا يتجاوز العاشرة من عمره على جزّ رأس سجين، بينما يقوم جندي بقطع العضو التناسلي لجثة رجل مذبوح»[29].

التنكيل الجنسي بالنساء

لطالما كان التعذيب والتنكيل ممارسين في العالم أجمع، لكن ذلك كله كان يتم بعيداً عن الأنظار وفي حقب غابرة وصار الآن ممجوجاً ومرفوضاً ومداناً. لكن بلادنا ما زالت تزخر بالعنف على أنواعه، فعدا الاقتتال والحروب المتنقلة بين مكونات مجتمعاتنا المتعددة وعدا ظواهر الإرهاب والقتل العشوائي وتفجير الكنائس والمساجد الذي طالنا وطال العراق ومصر والجزائر واليمن، كان هناك الانتحار والعنف المنزلي الذي يشمل الطفل والمرأة يضاف إلى ذلك كله العدائية في جميع أنواع السلوك. مارست الأنظمة جميع أنواع التنكيل والتعذيب طوال عقود طويلة وحولت الشعوب العربية إلى ضحايا عاجزة ومريضة ممحوّة الشخصية

(28) لميس فرحات، «السوريون يتبادلون لقطات جرائم قتل غير إنسانية وكأنها بطاقات معايدة»، **إيلاف**، 14/ 5/ 2013.

(29) عبد الباري عطوان، «التمثيل بالجثث»، **القدس العربي**، 16/ 5/ 2013.

أجسادها «ميتة – حية»، أجساد عبيد.

عرضت جريدة الحياة ملفاً كاملاً عن موضوع العنف والتحرش الممارسين في عن كل من تونس والجزائر واليمن والعراق[30]. إذن التنكيل بالجسد الأنثوي والتحرش بالنساء ظاهرة معتادة في العالم العربي ولطالما استخدم جسد المرأة للثأر من معسكر الأعداء الذين تنتمي إليهم هذه المرأة. ولقد أشار علاء الأسواني، من بين عديدين غيره، إلى التنكيل والتحرش الجنسي تجاه النساء قبل الثورات وبعدها في إحدى مقالاته:» إن التحرش الجنسي المنظم الذي ارتكبه نظام مبارك ضد المتظاهرات هو ذاته التحرش الذي تعرضت له المتظاهرات تحت حكم «الإخوان»، وهو يتطابق في المضمون مع جرائم المجلس العسكري في سحل البنات وتعريتهن وهتك أعراضهن بكشوف العذرية. الفاشية الدينية مثل الفاشية العسكرية في عدائها للمرأة وذعرها من فكرة تحررها»[31].

الجنس كسلاح والاغتصاب كسياسة

لكن في سوريا لم يقتصر التنكيل الجنسي على النساء بل تحول سياسة للنظام تطال الأولاد والرجال والنساء. وتكتب الصحافية نادين العلي «بات العنف الجنسي سياسة منهجية يتبّعها نظام بشار الأسد. ويُقال إنّ رجاله يعتدون جنسياً على نساء ورجال المعارضة، مدمّرين العائلات وحياتها. ونتيجةً للحرب الدائرة، نادراً ما تطلب النساء والفتيات اللواتي يتعرّضن للاغتصاب أثناء الحرب المساعدة أو الدعم، ولا يطّلع المختصون على ما تتعرّض له المغتصَبات»[32].

ولقد حذرت الممثلة الخاصة للأمين العام للأمم المتحدة المعنية بالعنف الجنسي أثناء الصراعات زينب بانغورا من الانتشار الواسع للعنف الجنسي في سوريا. وتناولت بانغورا في إحاطتها أمام مجلس الأمن، الذي عقد جلسة مشاورات

(30) «العنف والتحرش يتربصان بالمرأة العربية والقوانين... غائبة»، **الحياة**، الخميس 2 فبراير 2013.

(31) علاء الأسواني، «من يحترم المرأة؟»، **السفير** في 2013/ 3/ 19.

(32) نادين العلي، «نظام الأسد يعتمد «العنف الجنسي» ضد النساء والرجال: متى العدالة؟» **ناو ليبانون**، في 26 أيار 2013.

تقرير الأمم المتحدة: «هناك انتهاكات مريعة لحقوق الإنسان في سوريا»، نشرته **البي بي سي** في الثلاثاء، 4 يونيو/ حزيران 2013.

مغلقة حول الوضع الإنساني في سوريا، مسألة الاستخدام المنظم للعنف الجنسي في سوريا، واصفة إياها «بالمثيرة للقلق»!!.

وأعلنت بانغورا أمام الصحافيين في المقر الدائم بنيويورك، إن العنف الجنسي ضد النساء والرجال، وضد الفتيان والفتيات، منتشر بشكل واسع في سوريا، مشيرة إلى إنهم لا يستطيعون الدخول إلى معظم المناطق التي تسيطر عليها المعارضة. وأضافت «وجدنا أن العنف الجنسي ضد الرجل والفتيان هو وسيلة لاستخراج المعلومات منهم في السجون، إذاً، يستخدم هذا الأسلوب كتقنية للحصول على المعلومات»[33].

الحل المرعب: إبادة جماعية وتغيير ديموغرافي

يبدو أن النظام وجد حلاً مرعباً لمواجهة الثورة في سوريا. وشعار نقتلكم أو نحكمكم ليس مجرد شعار، فكل ما يحدث في سوريا يشير إلى تطبيقه الحرفي ومن دون هوادة.

» يحاصر جيش بشار الأسد شعب الغوطتين وحمص منذ نيف وعام. وبعد أن عجز عن كسر إرادة شعب هاتين المنطقتين بالقوة، ها هو يقرر شطبه من الوجود بالحصار والتجويع، ويفرض عليه طوقا من حديد ومرتزقة لا ثغرة فيه، ويتركه للموت جوعا وتحت وابل من القصف المستمر، الذي لا يتوقف ليلا أو نهارا» بهذه الكلمات طالعتنا مقالة ميشال كيلو[34]. كما حصل تخوّف من إمكانية هدم سد الفرات بعد أن قُصِف منذ فترة، من ضمن ما ينقل عن اعتقاد أهل النظام بأن كل عمران سوريا واقتصادها هو من الإنجازات «الشخصية» لآل الأسد.

تنقل صحافية إسرائيلية زارت حلب[35]:

فالحال كالحال في الصومال أو في إثيوبيا: فالأولاد ذوو جلود صفراء من

(33) تقرير الأمم المتحدة تحذر من أن العنف الجنسي منتشر بشكل واسع في سوريا، نشر في 28 شباط 2013. والتقرير للعام 2012.

(34) ميشال كيلو، «القتل تجويعاً»، مرجع سابق.

(35) فرانشيسكا بوري، «حلب مدينة جائعة ومستنزفة وقتل أبنائها لا يحرك الضمير العالمي»، يديعوت، 2013/ 11، ترجمة صحيفة القدس العربي.

حمى التيفوس، ونظرات عميقة تنغرس فيك حينما تحاول المرور بهم. فهم يبدون مثل أولاد حرب حقيقيين ممن لا يظهرون أبدا في الصحف أو في التلفاز. وهم لا يبتسمون شُكرًا حينما يُعطون كعكة. فهم مرهَقون لا كلمات عندهم، وعيونُهم في دهشة للمشاهد الفظيعة. هؤلاء هم الأولاد الحقيقيون. هم والأولاد الذين حصدتهم صواريخ الأسد ممن بُعثرت أجزاء أجسامهم في المستشفيات. ويأتي الضحايا هنا دائما في أزواج لأنه يوجد بالقرب من كل قتيل جثة أخرى لمن حاول أن يُخلّصه وأطلق قناص النار عليه.

الخاتمة: كرامة النفس وكرامة الجسد

مع أن كُتب التاريخ مليئة بذكر الثورات العربية، لكن في الحقيقة لم تكن بينها ثورة بمعناها الشعبي الحقيقي، بل كلها كانت انقلابات أو تغييرات قسرية. الثورة العربية الكبرى عام 1916 ظلت مجرد فكرة ولم تصبح ثورة تقلب الأوضاع كما حصل مؤخراً مع الانتفاضات العربية. وثورة الضباط الأحرار المصرية في عام 1952 كانت انقلابا عسكريا، وكذلك الانقلابات التي قام بها حزب البعث بشقيه السوري والعراقي.

جاءت الثورات العربية بعد مرحلة طويلة من الركود والصمت مطالبة بالحرية والكرامة.الكرامة تختصر معنى وجود الفرد، معنى الحياة. رفض الذل والعيش دون امتهان من أي نوع كان! الكرامة التي تختصر البعد الرمزي لوجود الإنسان والتي لا يتم الالتفات إليها دائماً[36].

والكرامة الإنسانية التي تعني حق الفرد في أن يعيش باحتشام على جميع مستويات وجوده. فالعيش الكريم يشتمل حق الفرد بالحصول على حاجاته المعيشية الأساسية، والتمتع بجميع حقوقه المدنية منها والسياسية والتي تضمنها له شرعة حقوق الإنسان بما فيها حقوقه الفردية وكرامته وحريته الشخصية وقبلتها جميع الأديان. والكرامة تعني عدم تعرّض الفرد لأي إهانة مهما كانت. كرامة العربي

(36) انظر كتابي **فخّ الجسد**، طبعة أولى دار الريس 2000، وطبعة ثانية دار النهضة العربية، **بيروت**، 2012. من أجل توضيح العلاقة الجدلية بين نفس وجسد: بمعنى أننا نحن أجسادنا.

الضائعة والمداسة من قبل الأنظمة الفاشية الحاكمة هي العامل المشترك الذي يكمن في عمق التحركات الراهنة وهي في الخلفية الكامنة لما يحصل. الكرامة تعطي الحياة معناها وهي في جوهر البعد الرمزي للوجود الإنساني.

ولقد برهن العديد من الانتروبولوجيين أن الجوهر الإنساني يتركز في إرث البشر الاجتماعي أكثر من إرثهم البيولوجي.

ويعني هذا أن جوهر الإنسان هو خارج الفرد ويحيل إلى مجموع علاقاته الاجتماعية. وبهذا المعنى حتى اللاوعي لا يعود محبوساً في قعر الفرد وفي جسده. فهو لا يتجسد فقط في خطابات الأفراد المعنيين بل في تجسيد الخطابات الجماعية والتي تتمثل في المؤسسات وفي الأدوات والمجسدات الفنية والمواد الأرشيفية والتراث.... باختصار في مجموع التراث الإنساني الذي ينفصل ويتعدى منتجيه ليشكل بعدا ثالثا أسماه إدوارد هال «البعد المخفي»[37] أي الثقافي بالنسبة له ومن المتفق عليه أنه البعد الرمزي.

وهذا البعد يفسّر تزامن ما يحصل في العالم العربي كما فسّر ظاهرة الاستشهاد أو «عارض» قتل النفس؛ أليست «ظاهرة» أن يحمل الصبية أنفسهم ويذهبون كما في نزهة للقيام بعمليات من هذا النوع فيعودون إلى أسرهم أشلاء؟

إن من «لا يتفهم» لماذا يقوم واحدهم بهذا، على عنفه والرفض المبدأي له، يكون لا يقيم أي اعتبار لوجود الإنسان الرمزي وللامتداد الثقافي لهذا الوجود.

نهاية الرجل الصغير

الشعوب العربية انتفضت أخيراً ونهضت تطالب باسترجاع كرامتها؛ فيما يبدو أنه بزوغ عهد جديد يخرج فيه المواطن العربي من عصور «الرجل الصغير» بحسب تسمية العالم النفسي ولهلم رايش. إنها مرحلة آيلة إلى السقوط. الرجل الجبان الخائف غير المسؤول الذي يهرب ولا يستطيع النظر إلى نفسه ولا يجرؤ على أن يكون حراً، بل يقبل أن يظل ككلب مضروب؛ هذا الرجل الصغير الذي يجعل من نفسه عبداً وشرطياً على نفسه عرف أخيراً انه وحده المسؤول عن عبوديته. فكان

(37) Edward Hall, **La dimension Cachée**, Seuil, Paris, 1984.

أن انتفـض صارخاً حريته، حرية لم يكتسـبها إذ لا ضرورة «لاكتسـاب» الحرية، إنها موجودة بشكل عفوي في كل الوظائف الحيوية، ما يقوم به هو «القضاء على جميع الموانع أمام حريته»,.

إن ما يريده الجسد الاجتماعي الثائر هو استرداد كرامة الوجود الإنساني. وهذا ما يُفسّـر الثورات العربية الراهنة. لكن لا شـك أنها ستكون مرحلة قد تطول قبل أن تتوصل إلى تغيير الأوضاع وإعادة بنائها على أسس جديدة؛ إذ لا يجب أن ننسى أن ما يُعرف بأنه «الثورة الفرنسـية» هي تلك الحقبة من الفوضى التي اندلعت في العام 1789 وطالت لمدة عام ومن ثم تبعتها فترة من العنف والفوضى ولم تتوصل الثورة الفرنسية إلى تحقيق شعاراتها إلا بعد مرور عشرات السنوات.

إنهـا مجـرد بداية لحقبـة مقبلة سـتتحقق في نهايتهـا أحلام ومطالب الشـعوب بالحرية والكرامة الإنسانية.